لقد أينع الصبر ، وبدأ الجهد يثمر ، واستغلظ زرع الدعوة وأخذ يستوي على سوقه ليعطي النتيجة والثمار .

ولكن ، فلنلتفت مرة أخرى ـ قبل البحث عن الثمرة والبشائر ـ إلى طبيعة ذلك الصبر النّبوي العظيم ، أمام كل تلك الشدائد المختلفة الجسام .

لقد رأينا أن النّبي ﷺ لم يكن يقصر الدعوة على قومه من قريش الذين لم يألوا جهداً في إذاقته كل أصناف المحن والمصائب . بل كان يدخل بين القبائل الآتية من خارج مكة من شتى الجهات والأطراف بمناسبة موسم الحج ، فيعرض نفسه كدلال عليهم ويدعوهم إلى بضاعة الدّين وكنز التوحيد ، ويذهب ويجيء بينهم فلا يرى مجيباً له . روى أحمد وأصحاب السُّنن والحاكم وصححه : أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : « هل من رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً منعوني أن أبلّغ كلام ربّي ؟! »[٣٥] .

إحدى عشرة سنة ، والرسول ﷺ (بأبي هو وأمي) يعاني من حياة لا راحة فيها ولا استقرار ، تتربص قريش في كل دقيقة منها بقتله ، وتصب عليه ألواناً من المحن والشدائد ، فلا ينقص ذلك شيئاً من عزيمته ولا يضعف شيئاً من قوته وسعيه .

إحدى عشرة سنة ، والرسول ﷺ يعاني من غربة هائلة مظلمة بين قومه وجيرانه وكافة الجماعات والقبائل المحيطة به ، فلا ييأس ولا يضجر ولا يؤثر ذلك على شيء من أنسه بربّه عزّ وجلّ .

إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل في سبيل الله وحده ، هي الثمن والطريق إلى نشأة مدّ إسلامي زاخر عظيم ينتشر في مشرق العالم وغربه ، تتساقط أمامه قوة الروم وتتهاوى بين يديه عظمة فارس ، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات .

ثمن من الجهاد والصبر والتعب وخوض الشدائد ، كان من السهل جداً على الله عزّ وجلّ أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامي بدونه . ولكن تلك هي سنّة الله في عباده ، أراد أن يتحقق فيهم التعبُّد له اختياراً ، كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجباراً .

---

(٣٥) فتح الباري : ١٥٦/٧ ، وزاد المعاد : ٥٠/٢ ، وانظر الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد : ٢٦٩/٢٠

ولا يتحقق التعبُّد بدون بـذل الجهـد ، ولا يمحّص الصـادق من المنـافق بـدون عـذاب أو استشهاد ، وليس من العدل أن يكسب الإنسـان الغنم دون أن يبـذل على ذلـك شيئـاً من الغرم .

من أجل ذلك كلّف الله الإنسان بأمرين اثنين :

١ ـ إقامة شرعة الإسلام ومجتمعه .

٢ ـ السير إلى ذلك في طريق شائكة مجهدة غير معبدة .

والآن فلنتأمل في هذه الثمار التي أخـذت تبـدو على رأس إحـدى عشرة سنـة من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وطبيعتها ، وكيفية نموها :

أولاً : جـاءت هـذه الثمار المنتظرة من خـارج قريش بعيـدة عن قـومـه عليـه الصـلاة والسلام على الرغم من جواره معهم واحتكاكه بهم ، فلماذا ؟

قلنا في أوائل هذا الكتاب : لقد اقتضت حكمة الله الباهرة أن تسير الـدعوة الإسلاميـة في سبيل لاتدع أي شك للمتأمل في طبيعتها ومصدرهـا ، حتى يسهل الإيمـان بهـا ، ولا يقع أي التباس بينها وبين غيرها من الدعوات الأخرى . من أجل ذلك كان رسول الله ﷺ أميّاً لا يقرأ ولا يكتب ، ومن أجل ذلـك بعث في أمـة من الأميين الـذين لم يقتبسوا حضـارة ولم يُعرفوا بمـدنيـة أو ثقـافـة معينـة ، ومن أجل ذلـك جعلـه الله مثـال الخلق الكريم والأمـانـة والنزاهة .

ومن أجل ذلـك اقتضت حكمـة الله عزّ وجـلّ أن يكـون أنصـاره الأُوَل من غير بيئتـه وقومه ، حتى لا يظن ظان بأن دعوة الرسول ﷺ كانت في حقيقتهـا دعوة قوميـة حـاكتهـا رغبات قومه وظروف بيئته .

وهذا في الواقع من أجلّ الدلائل التي تكشف للمتأمل أن يداً إلهية تحوط حياة الـدعوة النبوية وظروفهـا من كل جـانب ، كي لاتوجـد في أي جـانب منهـا ثغرة لمطعن ، يقوم بـه مشكك أو محترف غزو فكري .

وهذا ماقاله واحد من الباحثين الأجانب أنفسهم ، فقد جاء في كتاب حاضر العالم الإسلامي ، نقلاً عن « دينه » قوله :

« إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النّبي ﷺ بهذا الأسلوب الأوربي المحض ، لبثوا ثلاثة أرباع قرن ، يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدّموا ماتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيّهم ، وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة أن يتمكنوا من هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية ، فهل تسنّى لهم شيء من ذلك ؟ الجواب : لم يتمكنوا من إثبات أقل شيء جديد ، بل إذا أمعنّا النظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء المستشرقون من فرنسيين وإنكليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين ، لانجد إلا خلطاً وخبطاً ، وإنك لترى كل واحد منهم يقرر مانقضه غيره »[٣٦] .

ثانياً : يتجلى لدى التأمل فيما سردناه من كيفية بدء إسلام الأنصار ، أن الله عزّ وجلّ قد مهّد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية ، وأنه كان في صدور أهل المدينة تهيؤ نفسي لقبول هذا الدين ، فما هي مظاهر هذا التهيؤ النفسي ؟

لقد كان سكان المدينة المنورة خليطاً من سكانها الأصليين وهم العرب المشركون واليهود المهاجرون إليها من أطراف الجزيرة ، وكان المشركون ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين إحداهما الأوس ، والثانية الخزرج .

وكان اليهود ثلاث قبائل : بني قريظة ، وبني النضير ، وبني قنيقاع .

ولقد احتال اليهود طويلاً ـ كعادتهم ـ حتى زرعوا الضغائن بين قبيلتي الأوس والخزرج ، فراح العرب يأكل بعضهم بعضاً في حروب طاحنة متلاحقة . ويقول محمد بن عبد الوهاب في كتابه (مختصر سيرة الرسول ﷺ) : « أن الحرب لبثت بينهم مئة وعشرين سنة »[٣٧] .

---

(٣٦) حاضر العالم الإسلامي : ٣٣/١

(٣٧) مختصر سيرة الرسول : ١٢٤

وفي غمار هـذه الخصومـة الطويلـة حـالف كل من الأوس والخزرج قبيلـة من اليهود ، فحالف الأوس بني قريظة ، وحـالف الخزرج بني النضير وبني قنيقـاع ، وكان آخر مـا بينهم من المواقع موقعة بعاث ، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة ، وكان يوماً عظيماً مات فيـه أكثر رؤسائهم .

وفي أثناء ذلك ، كان كلما وقع شيء بين العرب واليهود ، هدد اليهود العرب بـأنّ نبيّـاً قد آن أوان بعثته وأنهم سيكونون من أتباعه ، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم .

فهذه الظروف ، جعلت لدى أهل المدينة تطلُّعاً إلى هـذا الـدين ، وعلقت منهم آمـالاً قويـة بـه ، عسى أن تتـوحـد بفضلـه صفـوفهم ويعـود فيلتئم شملهم وتـذوب وتمحى أسبـاب الشقاق مما بينهم .

ولقد كان هذا مما صنعه الله لرسوله ، كما يقول ابن القيم في زاد المعـاد[٣٨] : « حتى يمهـد بذلك لهجرته إلى المدينة ، حيث اقتضت حكمة الله أن تكون هي المنطلق للمـدّ الإسلامي في أرجاء الأرض كلها » .

ثـالثـاً : في بيعـة العقبـة الأولى ، كان قـد تمّ إسلام عـدد من كبـار أهل المـدينـة ، كما ذكرنـا . فكيف كانت صـورة إسـلامهم ؟ ومـا هي حـدود مسؤوليـاتهم التي حمّلهم الإسـلام إياها ؟

لقد رأينا أن إسلامهم لم يكن مجرد نطق بالشهادتين ، بل كان إسلامهم هو الجزم القلبي والنطـق اللسـاني بهما ، ثم التزامـاً بـالبيعـة التي أخـذهـا رسـول الله ﷺ عليهم ، أن ينصبـغ سلوكهم بالصبغة الإسلامية عن طريق التمسك بنظمه وأخلاقه وعامة مبادئه ، أخذ عليهم أن لا يشركوا بـالله شيئـاً ، ولا يسرقوا ، ولا يـزنـوا ، ولا يقتلـوا أولادهم ، ولا يـأتـوا ببهتـان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوا رسول الله ﷺ في أي معروف يأمرهم به .

وهـذه هي أهم معـالم المجتمع الإسلامي الـذي بُعث رسـول الله ﷺ لإنشـائـه . فليست مهمته أن يلقن الناس كلمة الشهادة ثم يتركهم يرددونها بأفواههم وهم عـاكفون على انحرافـاتهم وبغيهم ومفاسدهم . صحيح أن الإنسان يصدق عليـه اسم المسلم إذا صـدّق بـالشهـادتين وأحلّ

---

(٣٨) زاد المعاد : ٥٠/٢ ، ط الحلبي .

الحلال وحرّم الحرام وصدّق بالفرائض ، ولكن ذلك لأن التصديق بوحدانية الله ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام هو المفتاح والوسيلة لإقامة المجتمع الإنساني وتحقيق نظمه ومبادئه ، وجعل الحاكمية في كل الأمور لله تعالى وحده . فحيثما وُجد الإيمان بوحدانية الله تعالى ورسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام لابدّ أن يتبعه الإيمان بحاكمية الله تعالى وضرورة اتّباع شريعته ودستوره .

ومن أعجب العجب ، ما يعمد إليه بعض الذين تأسرهم النظم والتشريعات الوضعية ، ممن لا يريدون المجاهرة بنبذ الإسلام واطّراحه ، حيث يحاولون أن يسلكوا مع خالق هذا الكون ومالكه مسلكاً أشبه ما يكون بمسلك الصلح والمفاوضات .

وسبيل المفاوضة عندهم ، أن يقسموا مظاهر المجتمع بينهم وبين الإسلام ، فللإسلام من المجتمع مساجده وسائر مظاهره العبادية ، يحكم ضمن ذلك على الناس بكل ما يريد ، ولهم منه نظمه وتشريعاته وأخلاقه يغيرون منها ويبدلون كما يريدون !..

ولو أن المتألهين والبغاة الذين أرسلت إليهم الرسل فكذبوا برسالاتهم تنبهوا لهذا الحلّ الطريف إزاء دعوتهم إلى الإسلام ، لما توانوا عن الدخول فيه وإظهار الطواعية له ، مادام أنه لا يكلفهم التنازل عن حاكميتهم ولا ترك شيء من قوانينهم وتنظيماتهم ، ولما بخلوا في مقابل ذلك بكلمة يرددونها أو طقوس يتركون السبيل إليها . ولكنهم علموا أن هذا الدين يكلفهم أول ما يكلفهم الدخول في نظام وحكم جديدين ، التشريع والحكم فيه إلى الله وحده ، فمن أجل ذلك شاقوا الله ورسوله وعزّ عليهم أن يعلنوا إسلامهم لدعوة الله عزّ وجلّ .

وفي بيان هذه الحقيقة والتحذير من فهم الإسلام على أنه كلمات وعبادات فقط ، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ أَلَم تَرَ إلى الَّذِينَ يزعُمونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إليكَ وما أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يتحاكَمُوا إلى الطَّاغوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ويريدُ الشَّيطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضلالاً بَعيداً ﴾ [النساء ٦٠/٤] .

رابعاً : مامن ريب أن رسول الله ﷺ ، كان هو المتكفل بعبء الدعوة إلى دين الله ، إذ هو رسوله إلى الناس كافة فلا بدّ له من تبليغ دعوة ربّه .

ولكن ماذا عن أولئك الذين يدخلون في الإسلام وعن علاقتهم بعبء هذه الدعوة ؟

إنـك لتجـد الجـواب على هـذا ، في إرسـال الرسـول ﷺ مصعب بن عمير مـع أولئـك الإثني عشر إلى المدينة بدعوة أهل المدينة إلى الإسلام وتعليمهم قراءة القرآن وأحكامه وإقامـة الصلاة .

ولقد انطلق مصعب بن عمير سعيـداً بتلبيـة أمر الرسول عليـه الصلاة والسلام ، وراح يـدعو أهل المـدينـة إلى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن ويبلغهم أحكام الله ، ولقـد كان الرجـل يدخل عليه وفي يده حربة يريد أن يقتله بها ، فما هو إلا أن يتلو عليه شيئاً من كتاب الله ويـذكر لـه بعض أحكام الإسلام ، حتى يلقي حربتـه ويتخـذ مجلسـه مع من حـولـه مسلماً موحداً يتعلم القرآن وأحكام الإسلام ، حتى انتشر الإسلام في دور المدينة كلهـا ولم يكن بينهم حديث إلا عن الإسلام .

وهل تعلم من هو مصعب بن عمير هذا ؟!

إنه ذاك الذي كان أنعم غلام بمكة ، وأجود شبانهـا حلّـة وبهـاء . فلمـا دخل الإسلام ، طـوى كل تلـك الرفـاهيـة وذلـك النعيم ، وانطلـق في سبيـل الـدعـوة الإسـلاميـة من وراء رسول الله ﷺ يتجرع كل شدة ويستعذب كل عذاب حتى قضى نحبه شهيداً في غزوة أُحد ، وليس له مما يلبسه إلا ثوب واحد ، أرادوا أن يكفنوه به ، فكانوا إذا غطوا به رأسـه خرجت رجلاه وإذا غطوا رجليه خرج رأسه فأخبروا بذلـك رسول الله ﷺ ، فبكى للـذي كان فيـه من النعمة في صدر حياتـه ، ثم قـال : « ضعوه ممـا يلي رأسـه واجعلوا على رجليـه شيئـاً من الإذخر »[٣٩] .

فليست مهمـة الـدعوة الإسلاميـة وقفـاً على الرسـل والأنبيـاء وحـدهم ، ولا خلفـائهم وورثتهم العلماء الذين يأتون من بعدهم ، وإنمـا الـدعوة الإسلاميـة جزء لا يتجزأ من حقيقـة الإسـلام نفسـه ، فـلا منـاص ولا مفر لكل مسلم من القيـام بعبئهـا مهما كان شـأنـه أو عملـه واختصاصه ، إذ حقيقة الدعوة إنما هي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وهو جماع معنى الجهاد كله في الإسلام ، وأنت خبير أن الجهاد فرض من فروض الإسلام تستقر تبعتـه على كل مسلم .

---

(٣٩) مسلم : ٤٨/٣ ، وانظر الإصابة لابن حجر : ٤٠٣/٣

ومن هنا تعلم أنه لامعنى ولا مكان لكلمة رجال الدين ، في المجتمع الإسلامي ، حينما تطلق على فئة معينة من المسلمين . ذلك أن كل من دخل الإسلام فقد بايع الله ورسوله على الجهاد من أجل هذا الدين ، ذكراً كان أم أنثى عالماً أو جاهلاً ، ومهما كان شأنه أو اختصاصه ، فالمسلمون كلهم رجال لهذا الدين ، اشترى منهم الله أرواحهم وأموالهم بأن لهم الجنة يسخرونها في سبيل إقامة دينه ونصر شريعته .

ومن المعلوم أن هذا كله لا علاقة له بما للعلماء من اختصاص البحث والاجتهاد وتبصير المسلمين بأحكام دينهم ، وحلّ ماقد يجدُّ من المشكلات في حياتهم ، على ضوء نصوص الشريعة الثابتة مع الزمن .

بيعة العقبة الثانية

ثم إن مصعب بن عمير عاد إلى مكة في موسم العام التالي ، ومعه جمع كبير من مسلمي المدينة ، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين .

قال محمد بن إسحاق يروي عن كعب بن مالك : « فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق . فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلُّل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدي .

قال : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، فتكلم القوم وقالوا : خذ منا لنفسك

ولربِّـك مـاأحببت .. فتكلم رسـول الله ﷺ ، فتـلا القرآن ودعـا إلى الله ورغَّب في الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسـاءكم وأبناءكم » .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذي بعثك بالحق نبيـاً لنمنّعنـك ممـا نمنع منـه أزرنـا ، فبـايعنـا يـارسول الله ، فنحن والله أبنـاء الحروب وأهل الحلقة (أي السلاح كله) ورثناها كابراً عن كابر » .

فـاعترض القــول ـ والبراء يتكلم ـ أبــو الهيثم بن التيِّهــان فقــال : « يـارسول الله ، إن بيننـا وبين الرجـال حبـالاً وإنـا قـاطعـوهـا ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » .

فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدّم الدّمَ والهدمُ الهدمَ ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

وقـد كان قـال رسول الله ﷺ : « أخرجـوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبـاً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فـأخرجوا منهم اثني عشر نقيبـاً ، تسعـة من الخـزرج وثـلاثـة من الأوس ، فلمـا تخيَّرهم قـال للنقبـاء : أنتم كفـلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي » .

وكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ثم بـايع القوم كلهم بعد ذلك .

فلما بايعنا رسول الله ﷺ قـال : « ارفضّوا إلى رحـالكم » ، فقـال لـه

العباس بن عبادة بن نفلة : « والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميّلن على أهل منى غداً بأسيافنا » ، فقال رسول الله ﷺ : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جلّة قريش ، فقالوا : يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله مامن حيّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم » .

فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله : « ماكان من هذا شيء وما علمناه . وقد صدقوا ، لم يعلموه . قال : « وبعضنا ينظر إلى بعض » .

ونفر الناس من منى ، فتحرى القوم الخبر فوجدوا أن الأمر قد كان . فخرجوا في طلبنا فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر[٤٠] ، والمنذر بن عمرو ـ وكلاهما كان نقيباً ـ فأما المنذر فأعجز القوم فهرب ، وأما سعد فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجبهته ، وكان ذا شعر كثير .

قال سعد : فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني ، إذ أقبل إليّ رجل ممن كان معهم ، فقال : « ويحك .. أما بينك وبين أحد من قريش جوار

---

(٤٠) أذاخر موضع قريب من مكة .

ولا عهـــد ؟ » قلت : « بلى والله ، لقـــد كنت أجير لكل من جبير بن مطعم والحارث بن أمية تجّارهما وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي » ، قال : « ويحـك فـاهتف بـاسمهما » ، قـال ففعلت ، فجـاء مطعم بن عـدي والحارث بن أمية فخلّصاه من أيديهم » .

قال ابن هشـام : « وكانت لبيعـة الحرب حين أذن الله لرسولـه في القتـال شروطـاً سـوى شرطـه عليهم في بيعـة العقبـة الأولى . كانت الأولى على بيعـة النساء ، وذلـك أن الله لم يكن أذن لرسولـه ﷺ في الحرب ، فلمـا أذن الله لـه فيهـا وبـايعهم رسول الله ﷺ في العقبـة الأخيرة على حرب الأحمر والأسـود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة » .

قـال عبـادة بن الصـامت : « بـايعنـا رسول الله ﷺ بيعـة الحرب ، على السمـع والطـاعـة في عسرنـا ويسرنـا ومنشطنـا ومكرهنـا وأثرة علينـا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم » .

وكانت أول آيـة نزلت في الإذن بـالحرب للرسـول ﷺ قـولـه تبـارك وتعالى : ﴿ أُذِنَ للذينَ يقاتَلونَ بأنّهُمْ ظُلِموا وإنّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لقديرٌ ، الـذينَ أُخْرِجوا من دِيـارِهِمْ بِغَيْرِ حقٍّ إلا أنْ يقولوا ربُّنـا اللهُ ، ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بَعضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُـدِّمَتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومسـاجـدُ يُـذْكَرُ فيهـا اسمُ اللهِ كثيراً ، ولينصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصُرُهُ ، إنّ اللهَ لقويٌّ عزيـزٌ ﴾[٤١] [الحج ٣٩/٢٢ ، ٤٠] .

---

(٤١) سيرة ابن هشام ، ومسنـد الإمـام أحمـد ، والطبري ، والعمـدة في كل ذلـك على ابن إسحـاق عن معبد بن كعب بن مالك .

العبر والعظات :

هذه البيعة الثانية تتفق في جوهرها مع بيعة العقبة الأولى . فكل منهما إعلان عن الدخول في الإسلام أمام رسول الله ، وأخذ للمواثيق والعهود على السمع والطاعة والإخلاص لدين الله ، والانصياع لأوامر رسوله .

إلا أننا نلحظ فارقين مهمين جديرين بالملاحظة والدرس ، بين كل من بيعة العقبة الأولى ، وبيعة العقبة الثانية .

الفارق الأول : أن عدد المبايعين من أهل المدينة في المرة الأولى كان اثنى عشر أما عددهم في البيعة الثانية فقد كان بضعة وسبعين بينهم امرأتان .

فقد عاد أولئك الاثنا عشر في السنة الأولى ـ ومعهم مصعب بن عمير ـ لا لينطوي كل على نفسه وينعزل في بيته ، بلى ليبشر بالإسلام كل من كان حوله من رجال ونساء ، يتلو عليهم قرآنه ويبين لهم أحكامه ونظامه . فمن أجل ذلك انتشر الإسلام تلك السنة في المدينة انتشاراً عظيماً حتى لم يبق دار إلا دخلها الإسلام ، وأصبح حديث أهلها في عامة الأوقات عن الإسلام وخصائصه وأحكامه .

وتلك هي وظيفة المسلم في كل عهد وفي كل مكان .

الفارق الثاني : أن البنود المنصوص عليها في البيعة الأولى ، خالية عن الإشارة إلى الجهاد بالقوة ، ولكنها في البيعة الثانية تضمنت الإشارة بل التصريح بضرورة الجهاد والدفاع عن رسول الله ﷺ والدعوة إلى دينه بكل وسيلة .

وسبب هذا الفارق أن أرباب البيعة الأولى انصرفوا وهم على موعد مع رسول الله ﷺ في المكان ذاته في الموسم التالي ، ليعودوا إليه بعدد أوفر من المسلمين ويجددوا العهد والمبايعة ، فلم يكن ثمة ما يستوجب مبايعته على القتال ، مادام أن الإذن به لم يأت بعد ، وما دام أن هؤلاء المبايعين سيلتقون بعد عام مرة أخرى برسول الله .

لقد كانت البيعة الأولى إذن بيعة مؤقتة ، بالنسبة لاقتصارها على تلك البنود فقط ، وهي البنود التي بايع عليها النساء فيما بعد .

أما البيعة الثانية ، فقد كانت الأساس الـذي هـاجر رسول الله ﷺ إلى المـدينـة بنـاء عليه ، ولذا فقد كانت شـاملـة للمبـادئ التي ستتم مشروعيتهـا بعـد الهجرة إلى المـدينـة ، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة بـالقوة ، وهو حكم وإن لم يكن قـد أذن الله بشرعيتـه في مكة ولكن الله عز وجل قد ألهم رسوله ﷺ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب .

ومن هنـا تعلم أن مشروعيـة القتـال في الإسـلام لم تكن إلا بعـد هجرتـه ﷺ على الصحيح ، وليس كما قد يُفهم من كلام ابن هشام في سيرته أنه إنما شُرع قبل الهجرة عند بيعـة العقبة الثانية . وليس في بنود تلك البيعة مـاقـد يـدل على مشروعيـة القتـال حينئـذ ، لأن النبي ﷺ إنما أخذ على أهل المدينة عهد الجهاد نظراً للمستقبل ، عندما سيهـاجر إليهم ويقيم بينهم في المدينة . والدليل على هذا مـاسبق ذكره أن العبـاس بن عبـادة قـال بعـد البيعـة : « والله الـذي بعثـك بـالحـق إن شئت لنميلن على أهـل منى غـداً بـأسيـافنـا » ، فقـال رسول الله ﷺ : « لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

ومن المتفق عليـه أن أول آيـة نزلت في الجهـاد ومشروعيتـه هي قولـه تعـالى : ﴿ أُذِنَ للذينَ يقاتَلونَ بأنّهُمْ ظُلِموا وإنّ اللهَ على نصرِهِمْ لقـديرٌ ﴾ ، وقـد روى الترمـذي والنسـائي وغيرهمـا عن ابن عبـاس قـال : « لمـا أخرج النبي ﷺ من مكـة ، قـال أبو بكر : أخرجـوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليـه راجعون ، ليهلكُنّ . قـال ابن عبـاس : فـأنزل الله عز وجل ﴿ أُذِنَ للـذينَ يُقـاتَلون بـأنهم ظُلِموا وإنّ اللهَ على نَصْرِهم لَقَـدير ﴾ قـال أبـو بكر رضي الله عنـه : فعرفت أن سيكون قتال »[٤٢] .

أما لماذا تأخرت مشروعية الجهاد بالقوة إلى هذه الفترة فللحكم التالية :

١ ـ من المناسب أن يسبق القتـال تعريف بـالإسلام ، ودعوة إليـه وإقـامـة لحجـه ، وحل للمشكـلات التي قـد تقف في سبيـل فهمـه . ولا ريب أن هـذه هي المراحـل الأولى في الجهاد . ولذا كان القيام بتحقيقها فرض كفاية يشترك المسلمون في المسؤولية عنها .

٢ ـ اقتضت رحمـةُ الله بعبـاده أن لا يحمّلهم واجب القتـال ، إلى أن تـوجـد لهم دار إسلام ، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه ، ويلوذون بـه . ولقـد كانت المـدينـة المنورة أول دار في الإسلام .

---

(٤٢) النسائي : ٥٢/٢ وتفسير ابن كثير : ٢٢٤/٣

إذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة

قال ابن سعد في طبقاته يروي عن عائشة رضي الله عنها : « لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه ، فقد جعل الله له منعة وقوماً أهل حرب وعدة ونجدة ، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج ، فضيّقوا على أصحابه وتعبّثوا بهم ، ونالوا مالم يكونوا ينالون من الشتم والأذى . فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة ، فقال : « قد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها » فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك ، فكان أول من قدم المدينة من أصحابه ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حشمة ، فهي أول ظعينة[٤٦] قدمت المدينة ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً فنزلوا على الأنصار في دورهم ، فآووهم ونصروهم وآسوهم »[٤٧] .

ولم يهاجر أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إلا متخفياً غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما همّ بالهجرة تقلّد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى في يده أسهماً ، واختصر

---

(٤٦) الظعينة هي المرأة التي تكون في الهودج .

(٤٧) طبقات ابن سعد ٢١٠/١ و ٢١١ وتاريخ الطبري ٣٦٧/١

عنزته (عصاه) ومضى قِبَل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها فطاف في البيت سبعاً متمكناً مطمئناً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف فقال : « شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعطاس ، من أراد أن يُثكل أمه أو يوتم ولده أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي » .

قال علي : فما اتّبعه إلا قوم من المستضعفين علّمهم ماأرشدهم ثم مضى لوجهه(٤٨) .

وهكذا تتابع المسلمون في الهجرة إلى المدينة حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعلي ، أو معذب محبوس ، أو مريض أو ضعيف عن الخروج » .

العبر والعظات :

كانت فتنة المسلمين من أصحاب النبي ﷺ ، في مكة ، فتنةَ الإيذاء والتعذيب وما يرونه من المشركين من ألوان الهزء والسخرية . فلما أذن لهم الرسول بالهجرة ، أصبحت فتنتُهم في ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم .

ولقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم ، أمام الفتنة الأولى والثانية . قابلوا المحن والشدائد بصبر ثابت وعزم عنيد . حتى إذا أشار لهم الرسول بالهجرة إلى المدينة ، توجهوا إليها وقد تركوا من ورائهم الوطن وما لهم فيه من مال ومتاع ونشب ، ذلك أنهم خرجوا مستخفين متسللين . ولا يتم ذلك إلا إذا تخلصوا من الأمتعة والأثقال ، فتركوا كل ذلك في مكة ليسلم لهم الدين ، واستعاضوا عنه بالإخوة الذين ينتظرونهم في المدينة ليؤووهم وينصروهم .

---

(٤٨) أسد الغابة : ٥٨/٤

وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الـذي أخلص الـدين لله ، لا يبـالي بـالوطن ولا بـالمـال والنشب في سبيل أن يسلم له دينه .

هذا عن أصحاب رسول الله في مكة .

أما أهل المدينة الـذين آووهم في بيوتهم وواسوهم ونصروهم ، فقـد قـدّموا المثل الصـادق للأخوة الإسلامية والمحبة في الله عز وجل .

وأنت خبير أن الله عز وجل قـد جعل أخوة الـدين أقوى من أخوة النسب وحـدهـا ، ولذلك كان الميراث في صدر الإسلام على أساس وشيجة الدين ، وأخوته والهجرة في سبيله .

ولم يستقر حكم الميراث على أساس علاقة القرابة إلا بعد أن تكامل الإسلام في المدينـة ، وصارت للمسلمين دار إسلام قوية منيعة .

يقول الله عز وجل : ﴿ إنّ الذينَ آمنوا وهاجَروا وجاهَدوا بأمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ في سبيلِ اللهِ ، والـذينَ آوَوْا ونَصَروا ، أولئـك بَعْضُهُمْ أوليـاءُ بَعْضٍ ، والـذينَ آمنـوا ولَمْ يُهـاجِروا ، مالَكُمْ من وِلايَتِهِمْ مِنْ شيءٍ حتى يُهاجِروا ﴾ [الأنفال ٨/٧٢] .

ثم إنه يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان شرعيان :

١ ـ وجـوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسـلام . روى القرطبي عن ابن العربي : « أن هذه الهجرة كانت فرضاً في أيـام النبي ﷺ ، وهي بـاقيـة مفروضـة إلى يوم القيـامـة . والتي انقطعت بالفتح ، إنما هي القصد إلى النبي ﷺ ، فـإن بقي في دار الحرب عصى »[٤٩] . ومثل دار الحرب في ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيـه إقـامـة الشعـائر الإسلاميـة من صلاة وصيام وجماعة وأذان ، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة .

ومما يستدل به على ذلك قوله تعالى : ﴿ إنّ الذينَ توفاهُمُ الملائِكَةُ ظالمي أنْفُسِهِمْ قـالوا فيمَ كُنْتُمْ ؟ قالوا كُنّا مستضعفينَ في الأرض ، قالوا ألم تَكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجِروا فيهـا ، فـأولئـكَ مـأواهُمْ جهنم وسـاءَتْ مصيراً ، إلا المستضعفينَ مِنَ الرجـالِ والنسـاء والـولـدانِ ، لا يستطيعونَ حيلةً ولا يهتدونَ سبيلاً ﴾ [النساء ٤/٩٧، ٩٨] .

---

(٤٩) تفسير القرطبي : ٥/٣٥٠

٢ ـ وجوب نصرة المسلمين بعضهم لبعضهم ، مهما اختلفت ديارهم وبلادهم مادام ذلك ممكناً . فقد اتفق العلماء والأئمة على أن المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين ، في أي جهة من جهات الأرض ، ثم لم يفعلوا ذلك ، فقد باؤوا بإثم كبير .

يقول أبو بكر بن العربي : « إذا كان في المسلمين أسراء أو مستضعفون فإن الولاية معهم قائمة ، والنصرة لهم واجبة بالبدن ، بأن لا تبقى منا عين تطرف ، حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم ، حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك »[٥٠] .

وكما تجب موالاة المسلمين بعضهم لبعضهم ، فإنه يجب أن تكون هذه الموالاة فيما بينهم ، ولا يجوز أن يشيع شيء من الولاية أو التناصر أو التآخي بين المسلمين وغيرهم . وهذا ما يصرح به كلام الله عز وجل ، إذ يقول : ﴿ والذينَ كَفَروا بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ ، إلا تَفْعَلوهُ تكُنْ فِتْنَةٌ في الأرْضِ وفسادٌ كبيرٌ ﴾ [الأنفال ٧٣/٨] .

يقول ابن العربي : « قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين ، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ، يتناصرون بدينهم ويتعاملون باعتقادهم »[٥١] .

ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم الإلهية ، هو أساس نصرة المسلمين في كل عصر وزمن ، كما أن إهمالهم لها وانصرافهم إلى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم وتفككهم وتألب أعدائهم عليهم من كل جهة وصوب .

---

(٥٠) أحكام القرآن لابن العربي : ٨٧٦/٢

(٥١) المرجع السابق : ٨٧٦/٢